

## رؤية الإسلام تجاه أدلجة العلم التجريبي المعاصر

### ISLAMIC VIEW TOWARDS THE IDEOLOGICALIZATION OF CONTEMPORARY EXPERIMENTAL SCIENCE

عيد شكر محمود البداوي د. أحمد المجتبى بانقا

#### ملخص البحث

يُنَاقَشُ هذا البحث قضية تنامي مخاوف الإنسانية من أدلجة العلم التجريبي المعاصر، ويكشف عن حقيقة هواجسها ومبرراتها الموضوعية، وما آلت إليه من صيحات تُنادي بضرورة البحث عن مرجعية فكرية حيادية عُليا، تقود العلم الحديث وتحدّد مساره، وتحصّنه من إيديولوجيات السياسة، وتحدّد من خضوعه لسلطة المال، وتُزوّج آلياته بقيم الأخلاق. وعلى تسارع إيقاع تلكم المخاوف تتمحور إشكالية البحث فتطرح أسئلتها التالية: ما حقيقة مخاوف المجتمع الدولي من تداعيات أدلجة العلم التجريبي المعاصر؟ وما السبيل إلى إيجاد مرجعية معرفية عُليا تتسم بالحياد وتضمن تصحيح مسار العلم وتقود توجهاته؟ وما مدى إمكانية طرح الرؤية الإسلامية كمرجعية معرفية تساهم في قيادة العلم الإنساني وتُحقّق أهدافه المنشودة؟ ولبيان ذلك اعتمد الباحث على المنهجين: الاستقرائي في تتبع التحريات المنبثقة من مخاوف أدلجة العلم الحديث، والتحليلي في دراسة الحلول المقترحة والمسارات التصحيحية المقدّمة، ومقارنتها برؤية الإسلام تجاه العلم، وقد بيّن البحث أنّ الرؤية الإسلامية تتمثّل حلاًّ ملائماً يضمن في حال تبنيّه تحرير العلم من كلّ إيديولوجيا؛ كونها تتكوّن من خمسة ركائز تُحيل كلّ واحدة منها إلى الأخرى وتتضمّن بالضرورة، فتعالج خللاً أو تسدّ ثغرة تُفضي إلى أدلجة العلم التجريبي المعاصر.

الكلمات المفتاحية: الإسلام، العلم التجريبي المعاصر، الإيديولوجيا، النظام المعرفي، مستقبل العلم.

#### ABSTRACT

This research discusses the human concern about the ideologicalization of contemporary experimental science, and reveals the real worries and substantive justifications of this concern, as well as some inquiries for the need to search for a higher neutral intellectual reference that determines the course of modern science and protects it from the control of different political ideologies as well as does not allow it to submit itself to the financial control and provides for it a moral-based mechanism. The problem raised by this research about the acceleration of these concerns arises the following questions: What is the truth of the concerns of the international community about the implications of the argument of contemporary experimental science? How to find a supreme knowledge authority that is neutral and ensures that the course of knowledge is

guided? And the extent to which the Islamic vision can be presented as a reference knowledge that contributes to the leadership of human science and achieves its beneficial purpose for humanity? The research has shown that the Islamic vision is an appropriate solution that, if adopted, will ensure the freeing of science from every ideology; being that vision consists of five pillars complement each other, It addresses a gap that leads to the ideologicalization of contemporary experimental science.

**Keywords:** *Islam, contemporary experimental science, ideology, cognitive system, future of science.*

#### المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد ؛

فإنَّ مخاوف البشرية من أدلجة العلم تزداد وتتعاظم، وتنبض هواجس تنامي سلطته وتزاحم، إذ بدا للكثير من الناس أنَّ العلم قد فرض معايير ومقاييسه، وهيمن على العقول فسلب عنها ألبابها، وتسَلَّق سُلَّم المعارف فتمكَّن من أسبابها، واحتكر سلطانها وأحكم غلق أبوابها، فتوغَّل في أدقِّ تفاصيل حياة الإنسان، وبات مُستبَدَّاً ومُتعالياً وعَصِيّاً على النقد الرصين، وأضحى خطابه مُلزماً لشريحة واسعة من العلماء والمفكرين؛ ولما كان العلم بتلك السلطة الفكرية الجامحة، وبرحابة آفاقه العلميَّة الجانحة، فقد وجدت تلك المخاوف ضالَّتْها في ضرورة البحث عن مرجعية فكرية حيادية عليا تقود سفينة العلم وتُمسك بدقَّتْها وتحدِّد مسارها، فتحمي العلم من نفسه، وتحصِّنه من إيديولوجيا السياسة، وتحدُّ من خضوعه لسلطة المال، وتزواج آليَّاته بقيم الأخلاق.

إلَّا إنَّ هذه اليقظة الفكرية النابضة لتلك المخاوف الصامتة، وما ينتج عنها من بحث دؤوب عن مرجعية معرفية حيادية عليا تقود العلم والإنسانية نحو برِّ الأمان؛ تصطدم بكثير من العوائق، لعلَّ من أهمها هو صعوبة الوثوق بحيادية تلك المرجعية المنشودة فضلاً عن تعسّر ضمان استمراريتها حياديَّتها إذا ما تمَّ تحديدها، إذ لا بدَّ ليد الإنسان أن تطاها فتُفرغ عنها حياديَّتها بأي شكل من الأشكال، فتفقد تلك المرجعية أهم أركانها، الأمر الذي يخمد جذوة المخاوف ويقيها حاملة، هامة، مستسلمة لقدرها المحتوم، ومن هذا المنطلق فلا مفرَّ من طرح رؤية تعانق روح تلك السلطة المعرفية التي تنشدها فطرة الإنسان وتدفعه إلى التماسها، ولا يخفى على مُطلِّعٍ وناظرٍ ما للرؤية الإسلامية من تجسيد حي لتلك المرجعية المعرفية المرجوة التي تكفل للعلم بقاءه وديمومية منافعه العظيمة للبشرية.

#### إشكالية البحث

تسري إشكالية البحث على إيقاع تسارع نبض تلك المخاوف المتنامية من تداعيات استعباد العلم التجريبي المعاصر وأدلجته، فتتخذ منها موضوعاً تنطلق منه لتطرح أسئلتها التالية: ما حقيقة تلك المخاوف وما مبرراتها الموضوعية التي

ترتكز عليها؟ وما السبيل لإيجاد معرفيةً عليا تتسم بالحياد فتقود بوصلة العلم وتصحح مساره؟ ما مدى إمكانية طرح الرؤية الإسلامية المنبثقة من مصدره القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة كمرجعية معرفية عليا تقود العلم البشري وتضمن حياديته؟

### أهمية البحث

تكمن أهمية البحث من خلال عرضه لمظاهر أدلجة العلم التجريبي المعاصر، ومناقشته للحلول المستعصية والآفاق المفتوحة لتنقية العلم ممّا شابه من أدلجة مسبقة وضعت في غير سياقه، وتقديمه للرؤية الإسلامية وما تستند إليه من ركائز منبثقة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة التي من شأنها أن تسهم إلى حد كبير في الحفاظ على العلم التجريبي على اعتباره من مُنتجات العقل الإنساني الذي يعدّه الإسلام إحدى الضرورات الخمس التي أمر الله تعالى بحفظها وصيانتها.

### أولاً: مظاهر أدلجة العلم التجريبي المعاصر

لقد أضحى العلم التجريبي المعاصر الظاهرة الأبرز على سطح الوقائع والأحداث في القرنين الأخيرين بعد أن غيّر حياة الإنسانية بإنجازاته المذهلة، وبات العامل الحاسم في اختزال المعارف البشرية بتاريخها المديد، وورث سلطتها العتيده، وتحرّر من أحماله التي رافقته، فركن تاريخه على رفوف المكتبات، فأصبح لا يعرف منطقاً غير منطقته، ولا يأبه لنقد غير نقده، واستقلّ بقواعده وآلياته وموضوعيته ونتائجه التي تشكّلت عبر سلسلة من المتتاليات المتسارعة فهو في أوضح تعريفاته المعاصرة: "عبارة عن تصوّرات ذهنية، ومشروعات تصوّرية، مترابطة ومتواصلة نتيجة الملاحظة والتجريب"<sup>1</sup>.

وإذا كان مفهوم "الإيديولوجيا" في أبرز تعريفاته المعاصرة يعني: "توظيف الشيء وفق تقارير وأحكام مسبقة بهدف مصلحة معينة"<sup>2</sup>، فقد أجرى الإنسان الغربي في مسعاه الحداثي - العقلاني تطبيق دلالات المفهوم تطبيقاً فعلياً على أرض الواقع من خلال أدلجة العلم التجريبي المعاصر بعد أن أدرك تنامي قوّته الجبّارة المتسارعة، فسعى إلى امتلاكها واستغلالها وتوجيهها وفصلها عن كلّ القيم والأخلاق، وبات من الواضح أنّ يد الإنسان دأبت على التدخّل المستمرّ في توجيه مسارات العلم المعاصر سياسياً واستغلاله في صنع أسلحة الدمار الشامل وإدارة الحربين العالميتين، وإخضاعه اقتصادياً لسلطة المال عبر تمويله لمشاريع بحثية معينة، وتجريده من القيم الأخلاقية، ويمكن بيان أهم مظاهر تلك الأدلجة على النحو التالي:

<sup>1</sup> جيمس ب. كونانت، مواقف حاسمة في تاريخ العلم، ترجمة: أحمد زكي، (القاهرة: دار المعارف، ط2، 1333هـ/1963م)، ص46.

<sup>2</sup> عبد الله العروي، مفهوم الإيديولوجيا، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط5، 1413هـ/1993م)، ص 13.

## أ- أدلجة العلم التجريبي المعاصر سياسياً

على الرغم من بلوغ العلم الحديث أقصى مراحل توهجه وتألقه؛ إلا أنه يمرُّ بأحرج منعرجاته عبر تاريخه المديد حين يواجه محاولات أدلجته سياسياً من خلال ترويض بعض حقوله المهمة في أهداف سياسية معينة بما يخرجها عن موضوعيتها التي تعدّ من أهم ركائز مشروعيتها، ولعلّ من أهم مظاهر تلك الأدلجة هو استغلال العلم في تصنيع أسلحة الدمار الشامل، إذ وظّفت سياسات الدول العظمى كلّ إمكانيات العلم والعلماء في الفوز بسباقات التسلّح بكلّ أنواعها سواء التقليدية، أو البيولوجية، أو أسلحة الدمار الشامل، وجنّد العلماء والمهندسون لاختراع أدوات تدميرية فتّاقة، وظهر التنافس الغير الأخلاقي على أشده أثناء الحرب العالمية الأولى (1914م-1918م)<sup>3</sup>، وبلغ ذلك التنافس العدواني مداه مع نهاية الحرب العالمية الثانية (1939م-1945م) حينما شنّت الولايات المتحدة الأمريكية هجوماً نووياً على اليابان، ليُسبّر العلم بخجل أكبر خطاياها في تاريخ البشرية<sup>4</sup>.

ولم يقتصر استغلال العلم على أزمنة الحرب والصراعات فحسب، بل تعدّى لأزمة السلم حينما انفجر المفاعل النووي الشهير "تشرنوبل" بعد أكبر عملية تسرب نووي ألفها التاريخ فتسببت بوفاة أكثر من ثلاثة وتسعين ألف إنسان<sup>5</sup>، علاوة على توريط العلم في عملية إنتاج التقنيات البيولوجية التدميرية، إذ أنشأت مختبرات سرّية تشرف عليها أجهزة مخبراتها وتم تهجين الفيروسات البائية، وتغيير أنماط الأمراض يجعلها أكثر ضرراً.

هذا ولقد عبّر العلم عن صدمته الشديدة من أدلجة السياسة للعلم الحديث، فضلاً عن شعوره المرير بالانخداع، وذلك من خلال أبرز علمائه الذين ساهمت ابتكاراتهم في تنامي القوة التدميرية، كالذي حدث مع المخترع السويدي الفريد نوبل (1833م-1869م) بعد أن شعر بالخطأ الجسيم الذي ارتكبه في حق البشرية، ليقرّر إنفاق ثروته الكبيرة في تأسيس جائزة علمية تخصّص للعلوم النافعة التي من شأنها تسعد البشرية<sup>6</sup>، ويقول "برتراند راسل" في هذا الصدد "فمزاج هؤلاء الخبراء يمتليء بالإحساس بالقوّة التي ليس لها حدود، وباليقين الصلف المغرور، واللذّة القائمة على استغلال المادة البشرية نفسها، وهذا يتعارض مع المزاج العقلي العلمي، ومع ذلك نحن لا نستطيع أن ننكر أنّ العلم

<sup>3</sup> ينظر: نيل م. هايمان، الحرب العالمية الأولى، ترجمة: حسن عويضة، (أبوظبي: مدارك، ط1، 1433هـ/2012م)، ص 20.

<sup>4</sup> ينظر: رمون كارتبه، الحرب العالمية الثانية، ترجمة: سهيل سماحة، (بيروت: مؤسسة نوفل، ط2، 1413هـ/1983م)، ج 2، ص 345.

<sup>5</sup> ينظر: ممدوح فتحي عبد الصبور، الطاقة النووية وإنتاج الطاقة، مجلة أسبوط للدراسات البيئية، (جامعة أسبوط، العدد الثاني والعشرون، يناير 2002م)، ص 61.

<sup>6</sup> ينظر: عاطف محمد، عبقرى القرن العشرين الفريد نوبل، (القاهرة: دار اللطائف، ط1، 1423هـ/2003م)، ص 23.

قد أسهم في تصاعد هذا الإحساس، وكذلك نلاحظ أنّ الآثار المباشرة الناجمة على التقنية العلميّة لم تكن بحالٍ من الأحوال مفيدة تماماً، فهي من ناحية زادت قدرة أسلحة الحرب على الفتك والدمار<sup>7</sup>.

### ب- خضوع العلم التجريبي المعاصر لسلطة المال

لم تكتف السياسة الغربيّة باستدراج العلم والعلماء إلى ميدان تدمير الإنسانيّة، بل تحالفت مع سلطة المال والاستثمار، كسبيل فعّال لتركييع العلم والعلماء بعد أنّ حاول العلماء الهروب من جبروت السياسة، حيث كان لسلطة المال تأثيرها الحاسم في إذعان النفوس، عندما تسلّلت إلى المختبرات ومجالات البحث بذريعة تمويل المشاريع البحثيّة، ليدخل العلم في مضيق نفق مظلم لا تعلم عواقبه وخفائيه، إذ كانت الابتكارات والاكتشافات موكولة سابقاً إلى تلقائيّة علمائه وما ينتج عنها من منجزات عظيمة لطالما أسعدت الإنسانيّة؛ فقد آل توجّه البحث العلمي إلى المؤسّسات والاستثمارات الماليّة العائدة إلى التحالفات المتعدّدة الجنسيّات، ومستند إلى نواياها القائمة على النفعيّة والربح السريع على حساب القيم والأخلاقيّات التي نادى بها الشرائع السماويّة.

ولم يعدّ سرّاً أنّ سلطة المال حشرت العلم التجريبي المعاصر في زاوية ضيقة حين وورطته بقضايا غير أخلاقيّة، فقد نادى الكثير من العلماء بضرورة تحرير المختبرات العلميّة من قيود سلطة المال، ويمكن للقارئ الكريم استشعار الخطر من خلال عرض تحذير واحد صادر من أحد العلماء من بين آلاف التحذيرات، كما حدّر الدكتور الطبيب نصير نديم من التلاعب بالجينوم<sup>8</sup> البشري من أجل التحكّم بإنجاب أطفال حسب الطلب من ناحية الذكاء والصفات الخلقية كالطول ولون البشرة، على خلفيّة دعم شركات التأمين لتلك الأبحاث<sup>9</sup>.

وتزايد مخاوف الإنسانيّة من قضايا متعدّدة ومتشابكة تتعلّق بشكل وثيق بقضيّة خضوع العلم لسلطة المال، لعلّ من أكثرها حساسيّة هي القضايا ذات البعد الإنساني كالطب والصيدلة، كما هو الحال في تزايد المخاوف بشأن توجّهات شركات الأدوية العالميّة وعلاقتها بالحروب، فضلاً عن احتكار بعضها لأدوية ضروريّة معيّنة بذريعة امتلاكها لبراءة اختراعها، وفق آليّة تنافس غير مسبوقه لتطويع العلم وتقبيده في مختبراتها.

<sup>7</sup> برتراند راسل، الدين والعلم، ترجمة: رمسيس عوض، (القاهرة: دار الهلال، ط1، 1417هـ/1997م)، ص 246.

<sup>8</sup> هو "الوحدة الاستنساخيّة (Unite of Transcription) الانتهازيّة التي تُسهم في تشكيل جزء من نمطنا الظاهري كنوع بشري، وكفرد من هذا النوع له خصائصه الفرديّة التي تميّزه عن أي شخصٍ آخر". هاني خليل رزق، الجينوم البشري وأخلاقيّاته، (دمشق: دار الفكر، ط1، 1428هـ/2007م)، ص 33.

<sup>9</sup> ينظر: نصير نديم، صحيفة الشرق الأوسط، (لندن: العدد، 8192، 3 مايو 2001م).

وتتنزّل تلكم المخاوف على قضايا كثيرة، كتراكم نفايات الدول الغنيّة على سواحل دول العالم الثالث، وإخضاع العقل للغريزة عبر تغييب مُتعمّد للعلوم الاجتماعية والسلوكيّة أو أدلجتها بمنهجية التسويق الإعلامي المملوك لكبريات الشركات متعدّدة الجنسيّات، والتحكّم بالصفات الوراثيّة للإنسان، وظاهرة الاحتباس الحراري والتغيير المناخي، وانقراض بعض الكائنات الحيّة، وتلوّث المياه، وغيرها من القضايا التي باتت تؤرّق الضمير الإنساني<sup>10</sup>.

### ج - مفارقة العلم التجريبي المعاصر للأخلاق

إذا كانت سلطة السياسة تسري على العباد، فإنّ سلطة الأخلاق تسري على الضمائر والقلوب؛ وعليها تُعلّق آخر آمال الإنسانيّة في التخلص من أدلجة العلم للسياسة، والحدّ من خضوعه لسلطة المال، إلّا إنّ بشائر هذا الأمل تصطدم بمصدريّة الإلزام الخلفي<sup>11</sup>، فإنّ كانت مصدريّة الإلزام الخلفي للعالم تعتمد الضمير الإنساني كملكّة عليا في النفس البشريّة، فإنّها قد تؤثّر أكلها في درء نفس العالم عن توريط نفسه والعلم معه في قضايا غير أخلاقيّة، أما إنّ كان مصدر الإلزام الخلفي يعتمد قوانين المجتمعات وعاداتها وتقاليدها كما تتّصف به المجتمعات العلميّة المتقدّمة فإنّ الأخلاق تكون عديمة الجدوى والتأثير، فلا ضابط يمكن أن يُلزم العالم بأخلاقيّات العلم طالما أنّ تمويل الأبحاث تقتضي السريّة التامّة؛ كونها إحدى أهمّ بنود عقود العمل الموقع عليها بين الطرفين.

وبناء على ماسبق، فإنّ ضمان صحّة إحصائيّات وتقارير بعض النتائج العلميّة في العلوم القائمة على التجربة والملاحظة لم تعد محلّ ثقة، فقد شاع في الأوساط العلميّة ظهور نتائج مغايرة عند تكرار تجارب معيّنة، الأمر الذي كشف التزييف الذي تمثّر به تلك النتائج، من أجل دعم نظريّات معيّنة، أو لترسيخ نظريّة ما خدمة لإيديولوجيا مسبّقة، كما حصل في الجدل الكبير حول نظريّة التطور وغيرها من النظريّات الجدليّة<sup>12</sup>.

ولأزمة الأخلاق هذه جذورها وأبعادها التاريخيّة في الحضارة الغربيّة الحديثة، إذ انكفأت الأخلاق ومباحثها بعيداً عن تكوين تلك الحضارة، رغم المحاولات التصحيحية الرامية إلى تفعيلها، يقول طه عبد الرحمن بعد عمليّة استنتاج طويلة: "لقد اتضح لنا في الفصول الأربعة الأخيرة كيف أنّ الحضارة الغربيّة الحديثة التي هي حضارة

<sup>10</sup> ينظر: روبرت م. أغروس وجورج ستانيو، **العلم في منظوره الجديد**، ترجمة: يمن خلايلي، ( الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، العدد 134، 1419هـ/1998م)، ص 9؛ وبمعنى طريف الخولي، **فلسفة العلم في القرن العشرين**، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، العدد 264، 1421هـ/2000م)، ص 443.

<sup>11</sup> ينظر: أحمد الجلي وآخرون، **الفكر الإسلامي**، ( أبوظبي: منشورات جامعة الإمارات العربية المتحدة، ط3، 1423هـ/2003م)، ص 168.

<sup>12</sup> ينظر: عبد الفتاح عبد الله بركة، **أخلاقيات العلم وأزمة الحضارة الحديثة**، **حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلاميّة**، (القاهرة: جامعة الأزهر، العدد الخامس، 1985م)، ص 13.

اللوغوس<sup>13</sup> ذات وجهين: عقلي وقولي، وذات شقين: معرفي وتقني، وكيف أنّ هذين الوجهين ودينك الشقين، وإنّ قصدا تلبية حاجة الإنسان المختلفة والمتزايدة، فإنّهما يضّرّان بأخلاقيّاته بقدر يهدّد إنسانيّته، فالوجه العقلي من هذه الحضارة يقطع عنه أسباب الترقّي في مراتب الأخلاق، والوجه القولي يضيق نطاقها ويمتد حركتها وينقص من شأنها، والشقّ المعرفي يُخرجها من الممارسة العلميّة ويفصلها عن المعاني الروحيّة، والشقّ التقني يعمل على استبعادها والاستحواذ عليها كما يحرص على استبدال غيرها؛ وما ذاك إلاّ لأنّ الحضارة حضارة ناقصة عقلاً، وظالمة قولاً، ومُتأزّمة معرفة، ومُتسلّطة تقنيّة"<sup>14</sup>.

وهكذا يتّضح ممّا سبق، أنّ مخاوف الإنسانيّة من استبعاد العلم وأدلجته سياسياً، وخضوعه لسلطة المال، ومفارقتها للأخلاق؛ حقيقيّة وصادمة، وتختص بمبرراتها الموضوعيّة المستقلّة، وأنّها تستدعي من العالم إيجاد حلول عاجلة ومستديمة لتحرير العلم من تداعيات إيديولوجيّته.

### ثانياً: الحلول المستعصية والآفاق المفتوحة

لقد وجدت الإنسانيّة في صرح العلم الحديث ثمرة نشاطها المعرفي عبر تاريخها الطويل، بإنجازاته المدهشة، وآثاره الواضحة في جميع مناحي الحياة، وإنّ مهمّة بقاء هذا الصرح شامخاً بتوجّهاته ومساراته الهادفة إلى تسخيرها الكثير من التوجّس والغموض والريبة، فقد لمس الإنسان تحوّلاً مريباً في أهداف العلم من غاية التسخير إلى آفة التدمير، وأدرك أبعادها وآثارها، فقام باقتراح بدائل تصحيحية لتوجيه مسارات العلم الحديث في خدمة الإنسانية، من أهمّها:

#### أ- الإعلان العالمي لحقوق الإنسان

استيقظ العالم على مظاهر عسكرة العلم التجريبي المعاصر من خلال كارثة ضحايا الحربين العالميتين الأولى والثانية والويلات التي خلّفتها، وما انتهت إليه من كارثة إلقاء القنبلتين النوويّتين على هيروشيما وناكازاكي في منتصف القرن العشرين، فقد حاول الضمير الإنساني متأخراً تشريع حقوق الإنسان السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة التي من شأنها صيانة حقوق الإنسان من كلّ أشكال الانتهاكات لتكون أساساً للحرية والعدالة والسلام، وكان من نتيجة تلك المحاولات المضمّنية أنّ أصدرت هيئة الأمم المتّحدة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في 10 ديسمبر 1948م،

<sup>13</sup> اللوغوس، مصطلح فلسفي صوفي ذو معان متعدّدة منها: العقل الكلي، كلمة الإله، والخطاب، ينظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، (بيروت: المؤسسة العربيّة للنشر، ط1، 1986م)، ج2، ص 978.

<sup>14</sup> طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق، مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربيّة، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط1، 2000م)، ص145.

فجاء مؤلفاً من ديباجة وثلاثين مادة، وقد عرّفته الأمم المتّحدة بأنه: "ضمانات قانونية عالمية لحماية الأفراد والجماعات من إجراءات الحكومات التي تمسّ الحريات الأساسية والكرامة الإنسانية" <sup>15</sup>.

ولقد كان الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بمثابة بارقة أمل تستند إليها المجتمعات الإنسانية في عتق العلم من عبودية السياسة، إلا أنّها أصيبت بخيبة أمل كبيرة عندما اتضح أنّ حقوق الإنسان لمجرد وصايا مثالية تفتقر إلى صفة الإلزام من الناحية العملية وعجزها الدائم عن تحقيق الأهداف السامية لحقوق الإنسان <sup>16</sup>، وقد تفاجأ المجتمع الدولي بأدلجة السياسة لحقوق الإنسان كما أدلجت العلم الحديث من قبل، إذ باتت تلك الحقوق ورقة ضغط كبيرة للدول الكبيرة لفرض توجُّهاتها وتحقيق مصالحها الاقتصادية، الأمر الذي أذى إلى تنامي حدّة المخاوف حول مستقبل العلم الحديث، لتبقى المعضلة الحقيقية قائمة تبحث عن حلول جذرية تضمن توجيه العلم الحديث نحو خدمة الإنسانية.

#### ب- اتفاقية الحدّ من انتشار الأسلحة النووية

لم تقتصر آثار الدمار الهائل للأسلحة النووية على أيام الحرب، وإنما تعدّت إلى أيام السلم، فقد واصلت الدول الكبرى سباق التسلّح وأجرت مئات التجارب النووية في الجو وتحت الأرض، وبين العلماء عن طريق تحديد نسبة الإشعاع وتركيبه النظائر داخل الإشعاعات التي تخلفها النفايات النووية، واستصرخوا الضمير الإنساني إلى ضرورة الوعي بآثار التجارب النووية وما تتركه من نفايات وإشعاعات كفيّلة بتدمير أجزاء واسعة من البيئة، فقد ضغط المجتمع الدولي عن طريق المنظّمات الإنسانية الغير حكومية على الرأي العام العالمي بعية تشريع قانون ملزم يحدّ من انتشار الأسلحة النووية، ولقد كان من أبرز تلك المنظّمات: منظّمة (IAEA) "الوكالة الدولية للطاقة الذرية" <sup>17</sup>، ومنظّمة (ICAN) "الحملة الدولية للقضاء على الأسلحة النووية"، وهي تحالف دولي لمنظّمات غير حكومية تعمل من أجل عالم خال من الأسلحة النووية <sup>18</sup>، وقد استجابت هيئة الأمم المتّحدة لتلك الضغوطات فعقدت المعاهدة الدولية

<sup>15</sup> ينظر: الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، موقع الأمم المتحدة، <<http://www.un.org/ar/universal-declaration-human-rights/index.html>>، شوهد بتاريخ 29 مايو 2017.

<sup>16</sup> ينظر: لين هانت، نشأة حقوق الإنسان لحة تاريخية، ترجمة: فايقة جرجيس حنا، (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط1، 2013م)، ص 174.

<sup>17</sup> وهي منظمة غير حكومية مستقلة تأسست سنة 1957م أصبحت تحت إشراف الامم فيما بعد، ينظر: موقعها الرسمي: <<https://www.iaea.org> / > شوهد بتاريخ 29 مايو 2017.

<sup>18</sup> ينظر: الدليل الرسمي للمنظمة عبر موقعها الرسمي: <<http://www.icanw.org/wp-content/uploads/2014/03/Ban-Nuclear-Weapons-Arabic-.pdf>> شوهد بتاريخ 29 مايو 2017.

(UNODA) "معاهدة الحدّ من انتشار الأسلحة النووية"<sup>19</sup> ، إلا إنّ الاتفاقية شأها الكثير من الانتقادات، لعلّ من أهمها أنّ وزراء خارجية الدول الكبرى "الأعضاء الاثني عشر" لم يتمكنوا من سدّ الثغرات القانونية التي تحول دون تطبيقها، فضلاً عن ظهور الكثير من المعطيات التي تُشير إلى بيع اليورانيوم والبلوتونيوم وبعض المواد الخام اللازمة لإنتاج الأسلحة النووية.

وكان من شأن تلك المعوّقات التي طالما حالت دون تنفيذ بنود الاتفاقية أنّ فقدت الإنسانية أدنى آمالها في الحدّ من انتشار الأسلحة النووية، بينما أصبح أقصى أمانها في حظر الأسلحة النووية في مَهَبِ الريح!!!

### ج - اتفاقيات المحافظة على البيئة

لقد أدّى التقدّم العلمي الهائل في العقود الستة الأخيرة إلى حدوث أضرار جسيمة بالبيئة تهدّد الحياة الإنسانية برمتها، فقد استغل رأس المال العلم من زاوية قيمته النفعيّة السلبية - وليس المعرفيّة - في تسخير الطبيعة عن طريق قوّة العلم المتمثّلة بآلته الصناعيّة المتقدّمة، فسجّل رأس المال انتهاكات صارخة، واستنزافات عدوانيّة، بحق الطبيعة<sup>20</sup>، ليصبح الهم البيئي يقضّ مضاجع الإنسانية، ويزداد تفاقماً، ممّا حدا بالمنظّمات الإنسانية بتكثيف جهودها، وقامت بعدة مظاهرات ألّبت الرأي العام على الدول الصناعيّة الكبرى، فاستجابات تلك الدول مُرغمة، وحظيت دعواتهم بتأييد إعلامي، وعلمي، وأخلاقي، وكانت من نتيجتها أنّ أسّست منظمة "الهيئة الدوليّة المعنية بتغيرات المناخ" ، وغيرها من المنظّمات<sup>21</sup>.

إلا أنّ هناك قلقاً متزايداً حول فعالية تلك الاتفاقيات كونها موقّعة بين أطراف متباينة الرؤى والأهداف، فضلاً عن افتقارها للتشريعات الضروريّة التي تُكسبها صفة الإلزام، كما أنّ لآلة الإعلاميّة والتسويقية المملوكة للشركات متعدّدة الجنسيّات دور كبير في التقليل المتعمّد من شأن المخاوف البيئية.

ولازالت قضية التهديدات البيئية تقضّ مضاجع الإنسانية كلما ذكرت قضايا مثل: ظاهرة الاحتباس الحراري، النفايات النووية، دفن النفايات التقليديّة، تآكل طبقة الأوزون، تلوث الهواء، إنقراض بعض الكائنات الحيّة، تآكل

<sup>19</sup> ينظر: تفاصيلها على موقع الأمم المتحدة الرسمي: <<http://disarmament.un.org/treaties/t/npt>> شوهده بتاريخ 29 مايو 2017.

<sup>20</sup> ينظر: آر. إيه بوكنان، الآلة قوة وسلطة، ترجمة: شوقي جلال، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، العدد 259، 1421هـ/2000م)، ص252.

<sup>21</sup> ينظر: أندرو آس. جودي، التغيرات البيئية، ترجمة: محمد محمود عاشور، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، د.ط، 1996م)، ص

الغابات، توسُّع الجفاف، تلوث البحار والمحيطات، اضطراب التنوع البيولوجي، الهجرة القسريَّة للطيور، الثروة السمكيَّة المهاجرة، تدمير موائل الكائنات الحيَّة، وغيرها كثير<sup>22</sup>.

ولقد تبَيَّن للإنسانية أنَّ الحلول التي جاهدت لتحقيقها في سبيل تحرير رقبة العلم الحديث من رِقِّ السياسة وعبوديَّة رأس المال، إمَّا عصيَّة التحقُّق، وإمَّا أنصاف حلول لا توفِّي أكلها، كما أنَّ الآفاق المفتوحة لا مكان لها سوى مخيِّلة العقل الإنساني بسبب إنعدام الرؤية الكليَّة التي تضمن بقاء العلم على مساراته الصحيحة.

### ثالثاً: رؤية الإسلام في مواجهة أدلجة العلم

يتجلَّى ممَّا سبق، أنَّ مخاوف الإنسانيَّة وهواجسها من تنامي سلطة العلم وأدلجته حقيقيَّة وملحَّة وصادمة، وأنَّ مسوِّغاتها تقتضي الجدِّيَّة والالتزام نحو توجيه مسارت العلم القادمة، وأنَّ الحفاظ على حياديَّة العلم من خلال استنهاض همَّة العالم لإيجاد مرجعيَّة معرفيَّة عليا تشرف على حياديَّة العلم ونفعيَّته، بات ضرورة حتمية لا مناص منها، يفرضها واقع المتغيِّرات العديدة، ويقتضيها مؤشِّر المعطيات الجديدة.

كما أنَّ تلكم المخاوف تستبطن هواجس أخرى نابعة من صعوبة إيجاد الحلول التي تُبدِّد توجُّساتها، الأمر الذي يُفاقم من وقع تسارع نبضها، فتتقاطع مع الأمل الذي تتحطَّم بوصلته أمام واقعه المحتوم.

ومن هنا تبرز الحاجة إلى الرؤية الإسلاميَّة تجاه العلم المستمدَّة من مصدره الرئيسين: القرآن الكريم والسنة النبويَّة المطهَّرة، وما انبثق منهما من مبادئ وقواعد تبَيَّن مقاصد الشرع وغاياته، والتي يمكن بيان أهمِّ مرتكزاتها على النحو الآتي:

### الركيزة الأولى: فريضة العلم وضرورته

لقد عدَّ الإسلامُ العقلَ من الضرورات الخمس إلى جانب الدين، والنفوس، والعرض، والمال، والتي لا بدَّ منها لقيام مصالح الدين والدنيا، للمجتمعات والأفراد، ولا يستقيم حال البشريَّة بانتهاك أحدها كما هو مقرَّر في مقاصد الشريعة<sup>23</sup>، وفرض كلِّ ما من شأنه أن يصونها ويحفظ لها ديموميَّتها، وحرَّم كل ما يخلُّ بها أو ينتقص من ضرورتها؛ ولقد فرض الإسلامُ لحفظ العقل العلمَ والتعلُّم، فقال ﷺ: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»<sup>24</sup>، وأوجب صيانته بتحفيظه عن

<sup>22</sup> ينظر: إكرام فهمي حسين، أثر التقدُّم العلمي على الإنسان والبيئة في العصر الحديث، مجلَّة كليَّة الآداب بجامعة حلوان، (حلوان: العدد 26، 2009)، ص 434.

<sup>23</sup> ينظر: أحمد الريسوني، مدخل إلى مقاصد الشريعة، (القاهرة: دار الكلمة، ط1، 1431هـ/2010م)، ص14.

<sup>24</sup> محمد بن يزيد بن ماجه القزويني، السنن، تحقيق: عصام موسي هادي، (الجيل: دار الصديق، ط1، 1431هـ/2010م)، باب فضل العلماء والحثُّ على طلب العلم، ص 78، حديث رقم: 224؛ وقد صحَّحه الحافظ السيوطي وخرَّج طرقه في جزء صغير،

طريق التفكير والتدبر والنظر والاستدلال وتحريره من عوائق التفكير، وحرّم كل ما يُضعفه أو يخلُّ بقدراته سواء كانت مفسد حسيّة كالمسكّرات والمخدّرات وغيرها، أو مفسد معنويّة كالتصوّرات والتوجّهات التي من شأنها وضع العقل في غير مساره المتمثّل في خدمة الإنسانيّة ونفعها، وبما أنّ العلم الإنساني هو أعظم ثمار العقل الإنساني، فإنّ أي استغلال للعلم والنظام المعرفي في غير نفع الإنسانيّة هو من قبيل المفسد المعنويّة التي حرّمها الإسلام حفاظاً على ملكة العقل الذي وهبه الله تعالى.

وعلى هذا الأساس فإنّ العبث بالعلم وتحريف مساره؛ هو خروج عن السنن الكونيّة الإلهيّة، وتكون عواقبه وخيمة على الإنسان والكون، وقد ظهرت ملامح تلك العواقب جلياً في القرن العشرين حين استخدمت السياسة ورأس المال العلم في تدمير البشر والطبيعة معاً، لأنّ الإيديولوجيا انتقائيّة الطبع في اختياراتها العلميّة، فهي ترمي إلى فرض نسق فكري مسبق أو منظومة صياغة معيّنة، أو تقدّم إجابات زائفة عن أسئلة حقيقيّة، أما النظام المعرفي الإسلامي فهو يقدم إجابات حقيقيّة عن تلك الأسئلة، فهو ربّاني المصدر ومتحرّر من جميع المؤشّرات الإيديولوجيّة.

### الركيزة الثانية: سموّ مكانة العلم في الإسلام

وهي ركيزة أساسية ترسّخت في وجدان المسلم منذ أول إشراقه الإسلام على الأرض ليزيل ما تراكم عليها من طبقات الجهل والتخلّف، عندما افتتح الوحي بكلمة " أَقْرَأْ " كأهمّ مفاتيح العلم قال تعالى: ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٢ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ٥ ﴾ [العلق: 1-5]، إذ تُشكّل هذه الآية أول مُنطلقات تكريم العلم، وسموّ مكانته، ونفاسة منزلته، لتتوالى الآيات في بيان فضل العلم وأهله، فأمر الله تعالى نبيّه ﷺ بالتزوّد من مناهل العلم، فقال تعالى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ١ ﴾ [طه: 114] وليمتدّ الاهتمام ليشمل أهل العلم وخاصّته فقال تعالى ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ١١ ﴾ [المجادلة: 11]، إلى غير ذلك من الآيات القرآنيّة الكريمة الدالّة على سموّ مكانة العلم، وقد واكبت السنّة النبويّة هذا النهج القرآني في تكريم العلم وطلبه والحثّ عليه، فجعلت من الخروج في طلب العلم أحد سُبل الوصول إلى الجنّة، قال ﷺ «وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»<sup>25</sup>، إذ نجد فيه بشارة بتسهيل العلم على طالبيه، لينتفع

ينظر: جلال الدين السوطي، جزء فيه طرق حديث طلب العلم فريضة على كلّ مسلم، تحقيق: علي حسن علي عبد الحميد، (عمّان: دار عمار، ط1، 1408هـ/1988م).

<sup>25</sup> ينظر: مسلم بن الحجاج أبو الحسين النيسابوري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ المعروف بصحيح مسلم، تحقيق: نظر محمد الفارياي، (الرياض: دار طيبة، ط1، 1427هـ/2006م)؛ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن والذكر، ص1242، الحديث رقم: 2699؛ ومحمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي، الجامع الكبير "السنن"، تحقيق: عصام موسى هادي، (الجبيل: دار الصديق، ط1، 1432هـ/2011م)، كتاب العلم،

الإنسان من العلم في رقي حياته وتحسين أحوال معيشتة، كما ندرك من تنكير كلمتي: "طريقاً" و "علماء" أهما تفيضان العموم؛ ليشتمل معنى الحديث كل طرق العلم حسية كانت أو معنوية، ويستوفي جميع العلوم النافعة<sup>26</sup>.

### الركيزة الثالثة: نفعية العلم وغايته في الإسلام

بعد أن بينت الركيزتان السابقتان مكانة العلم وسمو منزلته في الإسلام كفرضة وضرورة لاستمرارية الحياة الإنسانية، شدد الإسلام على ضرورة توجيه مسار العلم نحو منفعة الإنسان، وحذر من العلم الذي لا نفع منه ولا فائدة، فقد حث النبي ﷺ الصحابة رضي الله عنهم على طلب النافع، بقوله «سَلُوا اللَّهَ عِلْمًا نَافِعًا، وَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ»<sup>27</sup>، وكان ﷺ يستعيد من الله تعالى من العلم غير النافع بقوله: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ»<sup>28</sup>، وكان لهذا الأمر وقعه وصداه الواسع في أذهان علماء المسلمين، وفي نزوع العالم المسلم نحو التدقيق والتثبت والحذر من العلوم الوافدة على المسلمين بغيرها تنقيتها مما لصق بها من أعمال سحر وشعوذة وتنجيم وطلاسم وغيرها من العلوم الزائفة التي لا طائل له من سرها وتضييع طاقاته في متاهاتها، إذ ظهرت تطبيقات الأمر النبوي في أنصع صورها إبان قيام علماء الإسلام بأول عملية ترجمة منظمة في تاريخ البشرية صاغت الحضارة الإسلامية والتي بلغت أوجها على عهد المأمون وكان لها الأثر الأكبر في حفظ التراث المعرفي الإنساني من الضياع<sup>29</sup>.

ويتأسس على هذه الرؤية أن الإسلام قد حرم العلم غير النافع وأن أي انحراف يعتري العلم ويضعه في مسار ضرر بشرية أو الطبيعة إنما هو خروج عن هدي الإسلام، فالكون والحياة والإنسان، وكل مصائر الكائنات؛ تؤول إلى غاية الغايات، ومنتهى النهايات، إلى الله سبحانه وتعالى، قال جل جلاله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: 42] فهو سبحانه غاية كل شيء، وإن كل شيء في نطاق المعرفة إنما يحقق غاية مستمدة من إرادة الله الخالق العظيم، فلا

باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، ص 805، الحديث رقم: 2682؛ وقد حسن الترمذي الحديث دون الإشارة إلى صحته، لاحتمالية تدليس الأعمش من خلال عننته، وهذا فيه نظر؛ لأن مسلماً في رواية أبي أسامة عن الأعمش قال: "حدثنا أبو صالح" فتنفى بذلك تهمة التدليس فالحديث صحيح الإسناد وليس حسناً.

<sup>26</sup> ينظر: عبد الرؤوف بن تاج العارفين المتأوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، (بيروت، دار المعرفة، ط2، 1391هـ/1972م)، ج6، 154.

<sup>27</sup> ابن ماجه، السنن، كتاب الدعاء، باب ما تعوذ منه رسول الله ﷺ، ص 625، حديث رقم: 3843. وهو حديث صحيح.

<sup>28</sup> هو جزء من حديث أخرجه مسلم، ينظر: الإمام مسلم، الصحيح، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، ص 1250، الحديث رقم: 2722.

<sup>29</sup> ينظر: جون فريلي، مصباح علماء الدين، كيف وصلت العلوم الإغريقية إلى أوروبا عبر العالم الإسلامي؟ ترجمة: سعد محمد الأسعد، ومروان البوب، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط1، 1431هـ/2010م)، ص 169.

يمكن لأي فئة من الناس أن تُسيّر العلم الحديث وفق أهوائها ورغباتها، ومن خلال هذه الركيزة يتحرّر العلم لتحقيق أهدافه وغاياته في خدمة إعمار الأرض وترسيخ سعادة الإنسانية<sup>30</sup>.

إنّ تحديد غايات النظام المعرفي في الرؤية الإسلامية، يضمن حيادية العلم وبقاء توجّهاته في خدمة إعمار الأرض تحقيقاً لمبدأ الاستخلاف الإنساني على الأرض، وعليه فإنّ مبدأ الغائية في منظوره الإسلامي من شأنه أن يُدّد كل مخاوف العلم من أدلجته والعبث بمقدراته، وإنّ مسألة توجيهه عائد إلى الله سبحانه وتعالى وحده، فلا تستطيع حضارة ما أو جهة معينة أن تحتكر النظام المعرفي، أو تطوّعه وفق توجهات عنصريّة، أو قوميّة، أو عرقيّة، أو طبقيّة، أو فئويّة، أو أنساق فكريّة مسبّقة.

#### الركيزة الرابعة: العلم التجريبي مُسحّر لاكتشاف الطبيعة

ينطلق مبدأ التسخير من مجمل قوله تعالى: ﴿وَسَحَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجم: 13]، ويفهم بيانه من قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَحَّرَ لَكُمْ الْفُلُكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَحَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ۝ ٣٢ وَسَحَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَحَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: 30، 31]، وأنّ الكون وما فيه مُسحّر للإنسان، فقد حدّد الله سبحانه فيه أبعاد كل شيء ووضع له قوانينه وأنظمتها، وأودع في الإنسان القدرة على التعامل مع الطبيعة تعاملًا إيجابيًا مسؤولاً وفعالاً، يهدف إلى خدمة الإنسانية<sup>31</sup>. فلا يمكن لأحد أن يحتكر الطبيعة وفقاً لمصالحه وأهدافه، فلا استنزاف لكنوزها إلّا بقدر الحاجة البشريّة، بل الواجب إنمائها كما أمر رسول الله ﷺ بقوله: «فَإِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتَّىٰ يَغْرَسَهَا فليَغْرَسَهَا»<sup>32</sup>، فالطبيعة إذن مُسخرّة للإنسانية جمعاء، وتقتضي صفة الإلزام الربّاني المحافظة عليها وتحمل المسؤولية تجاهها ابتغاء مرضاة الله تعالى، ومن خلال صفة الإلزام هذه يمكن الحفاظ على الطبيعة ومعالجة ما لحق بها من أضرار من خلال فهم غاية التسخير، وتوجيه العلم في تحقيق تلك الغاية.

<sup>30</sup> إسماعيل راجي الفاروقي، التوحيد، مضامينه على الفكر والحياة، (القاهرة: مدارات للنشر، ط1، 1435هـ/2014م)، ص 88.

<sup>31</sup> عماد الدين خليل، مدخل إلى إسلاميّة المعرفة، (فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2، 1412هـ/1991)، ص29.

<sup>32</sup> الإمام أحمد بن حنبل الإشباني، المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد، (بيروت: مؤسّسة الرسالة، ط1، 1421هـ/2001م)، الحديث رقم: 12902، وهو حديث صحيح.

إنَّ استغلال مُنجزات العلم التجريبي المعاصر في استنزاف الطبيعة وإلحاق الدمار البالغ بموائلها ومواردها وخيراتها التي أودعها الله للإنسان، هو خلاف ما يقتضيه مبدأ التسخير وغاياته الأخلاقية من المنظور الإسلامي، فقد أمر الله سبحانه وتعالى الإنسان بأن يكون خليفته على هذه الأرض بقصد إنمائها وإعمارها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلْأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ﴾ [البقرة: 30]، وإنَّ هذا الاستخلاف هو أحد المبادئ التي يُعزِّز العلم من تمكينها للإنسان، ويُدللُّ صعابها، ويعينه على أداء الوظيفة المنوطة به<sup>33</sup>، وهو أحد صور تكريم الإنسان، إذ يقتضي هذا المبدأ تأكيد على حجم الحرّية والتصرف والاختيار المناط بالإنسان، والإنسان مفطور على ذلك الاختيار ومدفوع إليه بحافز التكريم<sup>34</sup>، ليحمل الأمانة التي أشار الله تعالى إليها في كتابه الكريم: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72].

وعلى أساس هذا المبدأ تتجلى الأهمية البالغة للعلم وطرائقه ووسائله في تمكين الإنسان من إنجاز مهمّة إعمار الأرض، وهذا ما شدّد عليه الوحي بشقّيه القرآن الكريم والسنة النبوية، لا سيما بعد أن نقلت أدلجة العلم حال الطبيعة من نعمة التسخير إلى نقمة التدمير.

#### الركيزة الخامسة: إسهام الإسلام في نشأة العلم التجريبي المعاصر

كان لحديث رسول الله ﷺ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ»<sup>35</sup>، ولحسن فهم الصحابة والتابعين والأجيال اللاحقة لمقاصد الحديث دوراً كبيراً وحاسماً في فتح ذهنيّة العالم المسلم الموسوعي الجامع للعلوم النقلية والعقلية والذي لا تحفى عليه مناسبة الحديث وإدراك معطياته نحو آفاق علمية رحبة تحرّره من مخافة الوقوع مع ما قد يتعارض مع مُسَلِّمات دينه المكوّن الأساس لحضارته العظيمة.

فلقد ولد المنهج التجريبي ونشأ بين يدي علماء الحضارة الإسلامية وأضحى جذراً أصيلاً للعلم التجريبي المعاصر، وأثر بشكل واضح على فكر طلائع فجر النهضة العلمية الأوربية في القرون الوسطى الذين ساهموا في تأسيس دعائم العلم التجريبي، فلم يقف العالم المسلم في حدود الأفق الفلسفي اليوناني الذي يُعنى بدراسة المبادئ الأساسية للأشياء

<sup>33</sup> الفاروقي، التوحيد، مضامينه على الفكر والحياة، ص 57.

<sup>34</sup> ينظر: عبد الحميد أبو سليمان، الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، (القاهرة: دار السلام، ط1، 2009م)، ص 105.

<sup>35</sup> الإمام مسلم، الصحيح، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً، دون ذكره ﷺ من معاش الدنيا على سبيل الرأي، ج 1، ص 1110، الحديث رقم: 2362. وقد تكلم الدارقطني عن شبهة إرسال هشام عن أبيه في إسناد الحديث وهذا مدفوع؛ لأنَّ مُسَلِّماً قد روى الحديث مقروناً برواية حماد عن ثابت عن أنس رضي الله عنه. وهذا يعني أنَّ هشاماً قد تُوبع من ثابت البُناني، فتنفي بذلك شبهة الإرسال عن الحديث.

والحقائق، ولم يكن أسيراً لمنهجه الاستدلالي العقلي في استخراج النتائج والبرهنة عليها، بل سارع إلى إيجاد منهج جديد قائم على التجربة والملاحظة، حيث ظهرت التجربة في أعمال جابر بن حيان، والرازي، وابن سينا، والخوارزمي، وابن النفيس، والجزري، والتي تُرجمت إلى أوروبا وأضحت المراجع العلميّة الأساسيّة في علوم الرياضيات والكيمياء والفيزياء والميكانيكا والفلك والطب والصيدلة زهاء خمسة قرون خلت<sup>36</sup>.

فلقد أذهلت اختراعات علماء الإسلام العلميّة في العصور الوسطى مُفكّرِي الغرب والداعين إلى تحرير العلم من عوائق التقدم والبحث عن منهج جديد يرتقي بحالة العلم الخاملة رُحاً طويلاً من الزمن، وأدركوا أنّ المنهج التجريبي الذي ابتكره العلماء المسلمون هو المنهج الوحيد الذي بإمكانه انتشار العلم من متلازمته النظرية والعقلية، فضلاً عن أصالة تلك الاختراعات وتشكيلها لأسس علمية في حقولها، فعلى سبيل المثال لا الحصر، لا يمكن تخيل العلم التجريبي المعاصر من دون ابتكار الجبر، والأرقام، والصفر، المتداولة حالياً، يقول كارل بوبر: "لو لم يكتشف العرب الأعداد العربية، لكان من الممكن أنّ تكون الرياضيات في مهدها الآن، لكنّ المرء استطاع بفضلها أن يخترع وأن يعرف الطبيعة بأسرها"<sup>37</sup>، ولا يمكن فهم تطور المحرك البخاري وسائر المحركات بمعزل عن اختراع الجزري لرافعة آلية يتم من خلالها نقل الحركة أو الطاقة الدائرية إلى طاقة مستقيمة تندفع بقوة إلى الأمام بواسطة منظومة تعتمد على التروس المسنّنة ليصبح الأساس الذي تستند إليه جميع المحركات العصرية<sup>38</sup>، فضلاً عن بقية الإنجازات المفصلية كاختراع الكاميرا والاكتشافات الطبية والعلمية كإكتشاف الدورة الدموية الصغرى وغيرها من إنجازات الحضارة الإسلامية التي تؤكّد لعلماء الإسلام فضلي السبق والريادة في إرساء قواعد العلم التجريبي المعاصر.

وبناء على ما سبق، فإنّ الإسلام ساهم إلى حدّ كبير في نشأة العلم التجريبي المعاصر، وينبغي أن يُنظر إلى هذا الإسهام الفعلي كدليل واضح على عالميّة العلم التجريبي المعاصر وتراكميته<sup>39</sup>، وإنّ نظرة الإسلام للعلم تتسم

<sup>36</sup> غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتير، (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، د. ط، 1390هـ/1970م)، ص569.

<sup>37</sup> كارل بوبر، تاريخ الرياضيات، نقلاً عن الموجز في التراث العربي، علي عبد الله الدفاع، الموجز في التراث العلمي العربي الإسلامي، (نيويورك: جون وايلي وأولاده للنشر، ط1، 1399هـ/1979م)، ص58؛

<sup>38</sup> ينظر: أبو العز إسماعيل الجزري، الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل، تحقيق: ماجد عبدالله الشمس، نشره ضمن كتابه: مقدمة لعلم الميكانيك في الحضارة العربية، (بغداد: مطبوعات جامعة بغداد، ط1، 1391هـ/1971م)، ص122.

<sup>39</sup> من المستغرب إسناد العلم التجريبي المعاصر إلى الغرب جملة وتفصيلاً وهو ما دأب عليه الكثير من الحداثيين العرب بعد أن استيقض العرب المسلمون على الفجوة الواسعة بينهم وبين الغرب، فأخذوا يشدّدون على قضية تغريب العلم التجريبي المعاصر، وإهمال تراكمية العلم التي تُعدّ من سمات العلم الرئيسة، بل من أهمّ ضرورات صيرورة العلم وديموميته.

بالشمولية من ناحية التنظير والتطبيق باعتباره قيمة عليا، فلا بدّ من الحفاظ عليه وصياغة مستقبله من خلال ترشيده وتوجيهه نحو نفع الإنسان وتحقيق سعادته.

### تكامل الركائز ووضوح الرؤية الإسلامية

بعد أن استعرضنا الركائز الخمس المؤسسة لرؤية الإسلام في مواجهة أدلجة العلم التجريبي المعاصر، ينبغي أن نُشير إلى ضرورة ترابط تلكم الركائز بشكلٍ وثيقٍ ومحكم، كونها تُحيل كلّ واحدة منها إلى الأخرى وتتضمّن بعضها بالضرورة، فتعالج كلّ ركيزة خللاً أو تسدّ ثغرة تُفضي إلى أدلجة العلم التجريبي المعاصر؛ فلا يمكن فهم رؤية الإسلام واستيعابها من دون أن يفرض الإسلام العلم على كلّ مسلم ويدعو للحفاظ على ملكة العقل كضرورة قصوى من ضروراته الخمس التي لا تدوم الحياة إلا بتوافرها كما في الركيزة الأولى، وليس لها المناداة بالحفاظ على العلم من دون أن ترفع من سمو مكانة العلم وأهله كما في الثانية، ولا يسعها رفض أدلجة العلم من دون تشخيص وظيفة العلم وحصر غاياته في خدمة الإنسانية ومنفعتيها وسعادتها كما هو محدد في الثالثة، وإنّ فهم هذه النفعيّة في مبدأ التسخير يجعل من العلم وسيلة فعّالة لإعمار الأرض وتنميتها وهذا ما ارتكزت عليه الرابعة، كما أنّ العلم التجريبي المعاصر ليس إلا ثمرة العقل الإنساني عبر عمره المديد وإنّ الإسلام ساهم إلى حدّ كبير في نشأته وإرساء قواعده كما هو واضح في الركيزة الأخيرة.

فمن خلال هذه الرؤية الإسلامية الكونية يمكن مواجهة تحديات مخاتلة العلم وتوظيفه وفق إيديولوجيات تتبع أنساق فكرية مسبقة قائمة على الجدال والصراع على حساب توجّهات العلم نفسه، ويمكن تقبّلها من المجتمع الدولي كمرجعية حيادية عليها تضمن بقاء العلم في مساره الذي أوداه الله تعالى له، واستخدامه في تسخير الطبيعة والتنعم بخيراتها التي أودعها الله سبحانه، تمهيداً لتحقيق مبدأ استخلاف الإنسان للأرض بهدف إعمارها وإنمائها، ودرء كل الأخطار التي نقلت الطبيعة من غاية التسخير إلى آفة التدمير، ولا يتأتى ذلك إلا في وضع العلم في مساره الذي حدّده الله تعالى له، لتساهم الرؤية الإسلامية في تبديد مخاوف المجتمع الدولي من تنامي ظاهرة أدلجة العلم التجريبي المعاصر، عوضاً من الحلول المستعصية، أو أنصاف الحلول، والتي لا يرتقي مفعولها إلى حجم التحديات الناجمة عن أدلجة العلم وتوظيفه في تدمير الإنسان والطبيعة معاً.

### الخاتمة

بعد هذه السياحة العقلية والوجدانية بين مُركّزات الرؤية الإسلامية تجاه أدلجة العلم التجريبي المعاصر، وبين مُحاطات السياسة الغربية ورأس المال في سعيهما الحثيث لاستبعاد العلم وتوظيفه وفق إيديولوجيات وأنساق فكرية وضعيّة مسبقة؛ لا بدّ من الوقوف على أهمّ نتائج البحث وتوصياته على النحو التالي:

1. إنَّ المخاوف حول أدلجة العلم تتنامى وتتعاظم، فقد لمس المجتمع الدولي حجم الدمار الذي خلّفه العلم الحديث عندما أخرجته السياسة ورأس المال عن مساراته الطبيعية. وقد بيّن البحث أنّ تلك المخاوف هي توجُّسات حقيقية وصادمة، وأنّ لها مبرراتها الموضوعية المستقلة.
  2. إنّ من أهمّ مظاهر أدلجة العلم سياسياً هو استغلال العلم في تصنيع أسلحة الدمار الشامل، الذي بلغ مداه مع نهاية الحرب العالمية الثانية عام 1945م حينما شنت الولايات المتحدة الأمريكية هجوماً نووياً على اليابان، لِيُسَطِّر العلم بخجل أكبر خطاياها في تاريخ البشرية، ولم تقتصر آثار أسلحة الدمار الشامل على أوقات الحروب، وإنما تعدّى دمارها أيام السلام، كما حدث مع مفاعل "تشرنوبل"، علاوة على إجراء ما يزيد عن 450 تجربة نووية في العقود الستة الأخيرة.
  3. بروز ظاهرة خضوع العلم الحديث لسلطة المال بذريعة تمويل المشاريع البحثية، بعد أن أضحت مهمّة تحديد أولويات الاكتشافات والمخترعات عائدة إلى مؤسسات المال والشركات المتعددة الجنسيات، بدلاً من المؤسسات العلمية الرصينة.
  4. إنّ الحلول المقترحة تتّصف بالعجز عن تحرير العلم الحديث من أتون الإيديولوجيا، فهي إمّا حلولاً مستعصية التطبيق كحظر الأسلحة النووية، أو أنصاف حلول كمعاهدة الحدّ من انتشار الأسلحة النووية، واتفاقيات الحفاظ على البيئة.
  5. تستند الرؤية الإسلامية في مواجهة أدلجة العلم التجريبي المعاصر على خمس ركائز أساسية، هي:
    - الركيزة الأولى: فريضة العلم وضرورته في الإسلام
    - الركيزة الثانية: سموّ مكانة العلم في الإسلام
    - الركيزة الثالثة: نفعيّة العلم وغايته في الإسلام
    - الركيزة الرابعة: العلم التجريبي مُسَخَّر لاكتشاف الطبيعة
    - الركيزة الخامسة: إسهام الإسلام في نشأة العلم التجريبي المعاصر
- ولا يمكن فهم هذه الرؤية من دون النظر إلى وحدة ركائزها وتكاملها بشكل وثيق ومتلازم، إذ تُحيل كل واحدة منها إلى الأخرى وتتضمّنهما بالضرورة، فتُعالج خللاً أو تسدُّ ثغرة تُفضي إلى أدلجة العلم، فلا يمكن استيعابها من دون أن يفرض الإسلام العلم ويصون مصدره العقل بأوامر تضمن استدامة فاعليّته من خلال دعوته المفعمة بالحماس لطلب العلم، كما لا يمكن تقبُّلها ما لم يحتلّ العلم مكانة سامية ومنزلة عُليا في مصدري الإسلام الرئيسين القرآن الكريم والسنة النبوية المطهّرة، وأنّ حصر وظيفة العلم بالنفعيّة وخدمة الإنسان كعبادة ووسيلة للتقرب إلى الله تعالى

وتحريم كلِّ علم يفضي إلى الضرر بالطبيعة والإنسان؛ من شأنه تفعيل مبدأ التسخير الذي يجعل من العلم وسيلة مُعينة لإعمار الأرض وتنميتها كجزء من منظومة الكون المحكَّمة والشاملة التي تستند إلى مقاصد الوحي، ولا يمكن فهم تلكم الركائز بمعزلٍ عن الركيزة الأخيرة التي تُعطي الإسلام الحقَّ بطرح رؤيته تجاه أدلجة العلم من منطلق إسهامه الكبير في نشأة العلم التجريبي المعاصر؛ وعليه فإنَّ تكاتف الركائز الخمس وتشكيلها لرؤية فريدة ذات طابع ربَّاني إنساني شامل؛ يؤهلها بعد استيعابها وفهم مآلاتها وغاياتها أن تكون مرجعيةً حياديةً عليا تُبَدِّد مخاوف المجتمع الدولي من مظاهر أدلجة العلم التجريبي المعاصر، وتُشعره بالثقة والطمأنينة حول مستقبل العلم.

### المصادر والمراجع

#### بعد القرآن الكريم

#### أولاً: المؤلفات

1. ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني. (1431هـ/2010م). السنن (ط1). عصام موسى هادي (تحقيق). الجليل: دار الصديق.
2. أبو سليمان، عبد الحميد. (1430هـ/2009م). الرؤية الكونية الحضارية القرآنية (ط1). القاهرة: دار السلام.
3. أغروس، روبرت م، وجورج ستانسيو. (1420هـ/1999م). العلم في منظوره الجديد (ط1). أيمن خلايلي (ترجمة). الكويت: عالم المعرفة.
4. الشيباني، أحمد بن حنبل. (1421هـ/2001م). المسند (ط1). شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد (تحقيق). بيروت: مؤسسة الرسالة.
5. بدوي، عبد الرحمن. (1407هـ/1986م). موسوعة الفلسفة (ط1). بيروت: المؤسسة العربية للنشر.
6. بوكانان، آر، إيه. (1421هـ/2000م). الآلة قوّة وسلطة (ط1). شوقي جلال (ترجمة) الكويت: عالم المعرفة.
7. الترمذي، محمد بن عيسى. (1432هـ/2011م). الجامع الكبير "السنن" (ط1). عصام موسى هادي (تحقيق). الجليل: دار الصديق.
8. الجزري، أبو العز إسماعيل بن الرزاز، (1391هـ/1971م). الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل (ط1). ماجد عبد الله الشمس (حقيقه ضمن كتابه: مقدمة لعلم الميكانيك في الحضارة العربية) بغداد: مطبوعات جامعة بغداد.

9. الجلي، أحمد. (1424هـ/2003م). **الفكر الإسلامي** (ط3). أبوظبي: جامعة الإمارات العربية المتحدة.
10. جودي، أندرو آس. (1417هـ/1996م). **التغيرات البيئية** (ط1). محمد محمود عاشور (ترجمة). القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
11. خليل، عماد الدين. (1412هـ/1991م). **مدخل إلى إسلامية المعرفة** (ط2). فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
12. الخولي، يحيى طريف. (1421هـ/2000م). **فلسفة العلم في القرن العشرين** (د.ط). الكويت: عالم المعرفة.
13. الدفاع، علي عبد الله. (1399هـ/1979م). **الموجز في التراث العلمي العربي الإسلامي** (ط1). نيويورك: جون وإيلي وأولاده للنشر.
14. راسل، براتراند. (1417هـ/1997م). **الدين والعلم** (ط1). رمسيس عوض (ترجمة). القاهرة: دار الهلال.
15. رزق، هاني خليل. (1428هـ/2007م). **الجينوم البشري وأخلاقياته** (ط1). دمشق: دار الفكر.
16. الريسوني، أحمد. (1431هـ/2010م). **مدخل إلى مقاصد الشريعة** (ط1). القاهرة: دار الكلمة.
17. السيوطي، جلال الدين. (1408هـ/1988م). **جزء فيه طرق حديث طلب العلم فريضة على كل مسلم** (ط1). علي حسن علي (تحقيق). عمان: دار عمار.
18. عبد الرحمن، طه. (1421هـ/2000م). **سؤال الأخلاق، مساهمة في النقد الأخلاقي للحدائث الغربية**. (ط1). الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
19. العروي، عبد الله. (1413هـ/1993م). **مفهوم الإيديولوجيا** (ط5). الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
20. الفاروقى، إسماعيل راجي. (1435هـ/2014م). **التوحيد، مضامينه على الفكر والحياة** (ط2). السيد عمر (ترجمة). القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر.
21. فريلي، جون. (1431هـ/2010م). **مصباح علاء الدين، كيف وصلت العلوم الإغريقية إلى أوروبا عبر العالم الإسلامي؟** (ط1)، سعد محمد الأسعد (ترجمة). بيروت: دار الكتاب العربي.
22. كارتيه، ريمون. (1403هـ/1983م). **الحرب العالمية الثانية** (ط2). سهيل سماحة (ترجمة). بيروت: مؤسسة نوفل.

23. كونانت، ب جيمس. ( 1333هـ/1963م). **مواقف حاسمة في تاريخ العلم (ط1)**. أحمد زكي (ترجمة). القاهرة: دار المعارف.
24. لوبون، غوستاف. (1390هـ/1970م). **حضارة العرب (د. ط)**. عادل زعيتر (ترجمة). القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه.
25. محمد، عاطف. (1424هـ/2003م). **عبقري القرن العشرين الفريد نوبل (ط1)**. القاهرة: دار اللطائف.
26. المناوي، عبد الرؤوف بن تاج العارفين. (1391هـ/1972م). **فيض القدير شرح الجامع الصغير (ط2)**. بيروت: دار المعرفة.
27. النيسابوري، مسلم بن الحجاج. (1427هـ/2006م). **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ المعروف بصحيح مسلم (ط1)**. محمد نظر الفاريابي (تحقيق). الرياض: دار طيبة.
28. هانت، لين. (1434هـ/2013م). **نشأة حقوق الإنسان لمحة تاريخية (ط1)**. فايقه جرجيس حنا (ترجمة). القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
29. هايمان، نيل م. (1433هـ/2012م). **الحرب العالمية الأولى (ط1)**. حسن عويضة (ترجمة). أبوظبي: مدارك.
- ثانياً: الدوريات:**
30. بركة، عبد الفتاح عبدالله. أخلاقيات العلم وأزمة الحضارة الحديثة، **حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، القاهرة: جامعة الأزهر، العدد الخامس، 1405هـ/1985م**.
31. حسين، إكرام فهمي. أثر التقدم العلمي على الإنسان والبيئة في العصر الحديث. **مجلة كلية الآداب بجامعة حلوان، العدد 26، 1430هـ/2009م**.
32. عبد الصبور، ممدوح فتحي. الطاقة النووية وإنتاج الطاقة. **مجلة أسبوت للدراسات البيئية، العدد، 22، 1423هـ/2002م**.
33. نصير نديم. لقاء منشور في **صحيفة الشرق الأوسط**، لندن. العدد، 8192، 3 مايو 2001م.
- ثالثاً: شبكات الإنترنت:**

34. موقع الوكالة الدولية للطاقة الذرية: <https://www.iaea.org/> آخر تعديل لهذه الصفحة بتاريخ 29 مايو 2017.

35. موقع الحملة الدولية للقضاء على الأسلحة النوويّة > <http://www.icanw.org/wp-content/uploads/2014/03/Ban-Nuclear-Weapons-Arabic-.pdf> < آخر تعديل لهذه الصفحة بتاريخ 29 مايو 2017.

36. معاهدة الحد من انتشار الأسلحة النوويّة : <http://disarmament.un.org/treaties/t/npt> < آخر تعديل لهذه الصفحة بتاريخ 29 مايو 2017.

37. موقع الأمم المتحدة، <http://www.un.org/ar/universal-declaration-human-rights/index.html> آخر تعديل لهذه الصفحة بتاريخ 29 مايو 2017.